بناء المعنى في وصف جزاء المتقين بين سورتي الذاريات والطور

إعداد

د/ نجوى إبراهيم عبد العزيز إبراهيم

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

nagwamahmoud.١٧٣@azhar.edu.eg

١٤٤٥هـ = ٢٠٢٤م.

ملخص البحث

مما لا شك فيه أن بناء المعنى هو السبيل إلى معرفة مقاصد الكلام وغاياته، التي تتنوّع بتنوّع المقامات، ولما كان بناء المعنى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالدراسة البلاغية كان اختياري لعنوان البحث: بناء المعنى في وصف جزاء المتقين بين سورتي الذاريات والطور.

وقد انتظم هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مطالب، تليها خاتمة، وفهارس.

١-المقدمة: وتحدثت فيها عن أهمية موضوع البحث، وأسباب اختياره، وخطته، والمنهج المتبع في دراسته، ٢- التمهيد: واشتمل على محورين: الأول: أهمية بناء المعنى وعلاقته بالدراسة البلاغية، والثاني: مدخل إلى السورتين الكريمتين، ٣- المطلب الأول: بناء المعنى في آيات جزاء المتقين في سورة الذاريات،٤- المطلب الثاني: بناء المعنى في آيات جزاء المتقين في سورة الطور، ٥- المطلب الثالث: أوجه التشابه والاختلاف لبناء المعنى في آيات جزاء المتقين بين الذاريات والطور، ٦- خاتمة البحث: وتشتمل أهم النتائج التي توصل إليها. ٧- الفهارس: وتحتوي على فهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

الكلمات المفتاحية: بناء- المعنى- الذاريات- الطور- المتقين

Research Title

Construct meaning in describing the dedicated between surat of Al-Zariyat and Al-Toor

Researcher Name: Dr. Nagwa Ibrahim Abd El-Aziz Ibrahim Mahmoud Eesa/Lecturer in the Department of Rhetoric and Criticism/Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls Port Said/Al-Azhar University/Republic Arab Egypt.
Email :nagwamahmoud.١٧٣@azhar.edu.eg

Summary Research

To construct meaning, of course, is to construct meanings and meanings, as varied as possible speech and obsession of the denominator, which are often recalled without origin imputed to meet purpose requirements.

The research came in an introduction, a preface, and three sections, which stand in conclusion and indexes.

١-Introduction: It talked about the importance of the topic, the reasons for choosing it, the research plan, and the method used in studying it, ٢-The preamble includes: two demands: The first requirement: The importance of meaning- building and its relation to rhetorical, Second, about introduction to the two dignified sura, ٣-The first topic: Construct meaning in describing the dedicated in sura of Al-Zariyat, ٤-The second topic: Construct meaning in describing the dedicated in sura of Al-Toor ,٥-The third topic: Similarities and differences in the construction of meaning in depicting the part of the goddess between Al-Zariyat and Al-Toor,٦-Conclusion of the research: It contains the most important results reached,٧-Indexes: It includes an index of sources and references, and another for topics.

Keywords: Construct– meaning- Al-Zariyat- Al-Toor- the dedicated.

المقدمة

الحمد لله حمدًا يفتح لنا أبواب الفهم لأسرار كلامه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صفوته ومختاره من خلقه لحمل كتابه العزيز وبيانه، صلاة وسلامًا دائمين نرقى بهما أعلى مراقي الفهم والسمع والنظر في غائصات المعاني، وعاليات المباني الدالة على جماله وجلاله.

أما بعد، فبناء المعاني وترتب بعضها على بعض، وتوالد بعضها من بعض، وكيف نمت وامتدت وتسلسلت من أولها إلى آخرها؟ وكيف تشعبت أجزاء منها إلى شعب ومجموعات؟ وكيف يرد بعضها إلى بعض؟ ومحاولة كشف الروابط والأشباه والنظائر التي بينها، كل ذلك وغيره يعد من دراسة بناء المعنى.

ولا شك أن طريقًا كهذا عسر ملتف، يحتاج إلى نظر وروية، وطول معالجة بالفكر والتأمل، كيف يمكن تحديد فروع المعاني وأصولها؟ وكيف التحمت الأطراف وتماسكت الأصول؟ وكيف تعطفت والتفت؟ وكيف تغورت وتسترت؟ وكيف برزت وظهرت؟ ثم كيف تشعبت وتمددت أجزاؤها؟ وكيف ترابطت وتآلفت فأمسك آخرها بأولها؟ وعقدت أطرافها على أصولها، وبناء المعني وتمثله وحدة واحدة يرى الشيخ عبد القاهر أنه باب لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه، وأنه النمط العالي والباب الأعظم(١).

وإن أصح الكلام وأعلاه كلام الله الذي أنزله على نبيه، ودراسة بناء معاني سور القرآن هو من أعظم الغايات للدرس البلاغي، وطروق هذا الباب لم يكن كثيرًا، وجهود العلماء فيه قليلة، وما يرجع إليه من كلام المفسرين عنه قليل، فاجتهدت واستعنت بالله واستضأت بأقوالهم وإشاراتهم في إعداد هذا البحث.

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ محمود محمد شاكر، صـ٩٥، مكتبة الخانجي القاهرة.

ومن خلال تتبعي لآيات الذكر الحكيم لفت انتباهي وجود تشابه بين سورتي الذاريات والطور، خاصة في الحديث عن جزاء المتقين فيهما، لذا ارتأيت أن أنشئ بحثي على إبراز وجوه التشابه والتقابل والتباين بين السورتين عن طريق اختيار الألفاظ وتركيب الجمل وبناء المعنى حسب السياق في كلا السورتين، مما يرسخ مبدأ الإعجاز القرآني، ويظهر روعة الأساليب وجودة السبك في الكتاب العزيز، فجاء البحث بعنوان: «**بناء المعنى في وصف جزاء المتقين بين سورتي الذاريات والطور**».

وقد تناولت كل ما يتعلق ببناء المعنى، ويدخل في ذلك بناءِ الجملة من تنكير وتعريف، وحذف وذكر، وإظهار وإضمار، وتقديم وتأخير، وإخبار بالاسم أو بالفعل، ونوع الجملة من حيث هي وصف، أو حال، أو توكيد أو بيان ...الخ، ودراسة علاقات الجمل بعضها ببعض، ومحاولة الإنصات بدقة إلى ما تنطقه هذه العلاقات والمداخلات من أسرار بلاغية مستكنه تسهم في بناء المعنى على ذلك النحو المعجز الذي تنطق به آيات النظم الكريم.

وجاءت أسباب اختيار الموضوع كالآتي:

١. إبراز جمال الأسلوب القرآني وبلاغته ووحدة بنائه ونظمه.
٢. تعلق موضوع الدراسة بأشرف وأجل علم على وجه الأرض، ألا وهو القرآن الكريم.
٣. التأمل والتَّدبر والتَّمعُّن في معاني وآيات القرآن الكريم؛ لاستنباط جماليات بناء المعنى.
٤. الرغبة في إظهار أوجه التشابه والتمايز بين السورتين موضع الدراسة.
٥. محاولة إظهار ذلك التناسق اللفظي والإبداعي في وضع كل حرف من القرآن الكريم في موضعه، وكذلك كشف بعض طرائق بناء المعنى، ومكمن العذوبة فيه.

وقد انتظمت خطة البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة محاور تليها خاتمة وفهارس؛ أما المقدمة: استهللت البحث بها، وتحدثت فيها عن طبيعة الموضوع وأهميته، وأسباب

اختياره، والخطة التي سار عليها، والمنهج المتبع في دراسته، وأما التمهيد فقد انتظم الحديث فيه عن أمرين.

- **الأمر الأول:** أهمية بناء المعنى وعلاقته بالدراسة البلاغية.
- **الأمر الثاني:** مدخل إلى السورتين الكريمتين.

أما المحاور الثلاثة فجاءت على النحو الآتي:

- **المحور الأول:** بناء المعنى في آيات جزاء المتقين في سورة الذاريات.
- **المحور الثاني:** بناء المعنى في آيات جزاء المتقين في سورة الطور.
- **المحور الثالث:** أوجه التشابه والاختلاف لبناء المعنى في آيات جزاء المتقين بين الذاريات والطور.

ثم الخاتمة وقد أجملت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، ثم الفهارس التي تحوي فهرس للمصادر والمراجع وآخر للموضوعات.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يعتمد على المنهج الاستقرائي التحليلي، الذي يقوم على استقراء آيات جزاء المتقين في كلتا السورتين، ثم تحليلها تحليلًا بلاغيًا يكشف عن دقائق بناء المعنى، وإبراز وجوه الإعجاز فيها، والإشارة إلى بعض مواطن التشابه والتباين بين أسس بناء المعنى في كل سورة منهما.

والله أسأل أن تكون الخُطى في مواقعها، وإن تخلَّفت أو اختلفت فالله أسأله العفو عني، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، كما أسأله التوفيق في المسعى، فهو الموفق مسدد الخطى إلى ما فيه صلاحنا حتى يرضى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د/ نجوى إبراهيم عبد العزيز إبراهيم

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

التمهيد

ويشتمل على أمرين:

الأمر الأول: أهمية بناء المعنى وعلاقته بالدراسة البلاغية

ماهية المعنى:

تدور مادة (ع ن ى) حول الظهور والإخراج، والقصد والإرادة، والاهتمام والإفادة، والحالة التي يصير إليها الشيء، والملابسة والمباشرة والقيام على الشيء، وكذلك العناء[1].

فالمعنى اللغوي يدل على أن المعنى هو: قصد يقصد قائله إلى ظهوره وإخراجه متعهدًا إياه حتى يتم كما أراد، فالكلام ليس لغوًا يقع اعتباطًا، ولكن له من القوة والشدة ما يبلغه شدة أثره، وكذلك فإن المعنى من العناء -أيضًا- فقائله يعنّي به؛ ليدق على المتلقى فيستحسنه ويطرب له.

وعرفه العسكري بقوله: «أن المعنى هو القصد الذي يقع به القول على وجه دون وجه»[2]، وإنما يقع المعنى كذلك على القول دون أعيانه، فيكمل العسكري قائلًا «عنيت بكلامي زيدًا كقولك: أردته بكلامي، ولا يجوز أن يكون زيد في الحقيقة مرادًا مع وجوده، فدل ذلك على أنه عني ذكره وأريد الخبر عنه دون نفسه»[3]، إذن فالمقصود بالمعنى -إضافة إلى أصله الظاهر- المعاني اللطيفة الخفية التي يستدعيها التركيب، والتي تحتاج إلى عقل يستخرج لطائفها، وقريحة بليغة تصوغ تلك اللطائف بما يلائم السياق والمقام.

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، تحقيق/ عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، مادة (ع ن ى)، دار المعارف، بدون تاريخ.

(٢) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، تحقيق/ محمد إبراهيم سليم، صـ٣٣، دار العلم والثقافة.

(٣) السابق صـ٣٤.

ومن ثم فإن المعنى في عمومه يدل على الفكرة الذهنية المجردة المعبر عنها بالكلام، كما يقول حازم القرطاجني: «هي الصّور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكلّ شيء له وجود خارج الذهن فإنّه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبّر عن تلك الصّورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبّر به هيئة تلك الصّورة الذّهنية في أفهام السامعين وأذهانهم، فصار المعنى وجود آخر من جهة الألفاظ»(١).

علاقة المعنى بالدراسة البلاغية:

لا شك في أن للمعنى علاقة وثيقة بالدرس البلاغي، فقد جعَله الإمام عبد القاهر هو المقصود الأصلي في كتابه أسرار البلاغة، فقال: «واعلم أن غرضي من هذا الكلام الذي ابتدأته، والأساس الذي وضعته أن أتوصل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفصل أجناسها وأنواعها، وأتتبع خاصها ومشاعها»(٢) إلى آخر ما قال -رحمه الله- مما يؤكد أن بحث المعاني ومعرفَة أجناسها وأنواعها وعلاقاتها وروابطها وتقاربها وتباعدها من صميم الدرس البلاغي، لأن استخراج أي لطيفة من لطائف النص أو دقيقة من دقائقه هو من صميم البحث البلاغي، بل إن الشيخ جعل أغمض المباحث البلاغية وأعلاها أن تتصرف في بناء المعاني بعضها على بعض، فقال: «واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت، أو تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك، نعم وفي حال ما يُبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين»(٣).

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، صـ١٨-١٩، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة.

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ محمود محمد شاكر، صـ٢٦، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

(٣) كتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، صـ٩٣.

ومن ثم فإن التحليل البلاغي إنما هو كشف عن جوانب المعاني، وأن النظم هو نظم معانٍ، وليس البناء اللغوي إلَّا الصورة اللفظية أو الصوتية لبناء المعاني، فبه ارتسمت قوالبها وهيآتها وأشكالها، ولا شك في أن تتبع حركة هذه المعاني وتدرجها، إنما هو المقصود والغايُة للدارس البلاغي الذي يريد الكشف عنه، فالبناءُ اللغوي ليس مقصودًا لذاته، إنما هو باب ومدخل للنفاذ إلى المعاني، والكشف عن حركتها، فالوصول إلى المعاني وترتب بعضها على بعض إنما هي وسيلته، وأداته تحليل البناءِ البلاغي للنصوص(١).

وإن أصح الكلام وأعلاه كلام الله الذي أنزله على نبيه -ﷺ-، ودراسة بناء معاني سور القرآن، والبحث في كلام الله -سبحانه وتعالى- من هذا الاتجاه، هو أعظم الغايات وأنبلها يقول الإمام عبد القاهر: «ومتى جشمت ذلك، وأبيت إلَّا أن تكون هنالك، فقد أممت إلى غرض كريم، وتعرضت لأمر جسيم، وآثرت التي هي أتم لدينك وفضلك، وأنبل عند ذوي العقول الراجحة لك، وذلك أن تعرف حجة الله -سبحانه وتعالى- من الوجه الذي هو أضوأ لها وأنوه بها، وأخلق بأن يزداد نورها سطوعًا، وكوكبها طلوعًا، وأن تسلك إليها الطريق الذي هو آمن لك من الشك وأبعد من الريب، وأصح لليقين، وأحرى بأن يبلغك قاصية التبيين»(٢)، ويقول الفخر الرازي مؤكدًا ذلك: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»(٣).

---

(١) ينظر مدخل لكتابي الإمام عبد القاهر للدكتور محمد أبو موسى، صـ٢٨٤، مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) دلائل الإعجاز، صـ٣٧-٣٨.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت:٩١١ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ٢/ ٢٨٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

الأمر الثاني: مدخل إلى السورتين الكريمتين

كلتا السورتين (الذاريات والطور) مكية، وقد تشابهتا في الموضوع الرئيس للسورة المكية وخصائص القرآن المكي وسماته، في تثبيت العقيدة في نفوس المسلمين وسبل نشر الدعوة الإسلامية، وكيفية مواجهة المعاندين والمتصدين للإسلام، فكان لا بدّ من التوجيه الإلهي للنبي -ﷺ- عبر هاتين السورتين.

ترتيبهما ووقت نزولهما:

الذاريات هي السورة الأولى من المجموعة الأولى من قسم المفصل، وعدد آياتها ستون آية، وهي السورة الحادية والخمسون في ترتيب القرآن(١)، أمَّا ترتيب النزول فقد نزلت بعد سورة الأحقاف، وهي من السوَّر التي تبدأ بأسلوب القسم، قال-سبحانه وتعالى-: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ [الذاريات:١]، نزلت سورة «الذاريات» بعد سورة «الأحقاف» وقبل سورة الغاشية، ونزلت سورة «الأحقاف» بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة «الذاريات» في ذلك التاريخ أيضا(٢).

أما سورة الطور فهي كذلك من سور المفصل، آياتها تسع وأربعون آية، وهي السورة الثانية والخمسون في ترتيب المصحف، في الجزء السابع والعشرين، أما ترتيب النزول فقد نزلت بعد سورة السجدة، وهي من السور التي تبدأ بأسلوب القسم: قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ [الطور: ١](٣).

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوّى (ت: ١٤٠٩هـ)، سورة الذاريات، صـ٥٥٠٣، دار السلام – القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٢٤هـ.

(٢) الموسوعة القرآنية، خصائص السور، جعفر شرف الدين، تحقيق/عبد العزيز بن عثمان التويجزي، ٩/ ١١، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت-لبنان.

(٣) السابق صـ٩/ ٢٩.

تناسب السورتين:

ويتجلى للمتأمل المناسبة بين سورتي الذاريات والطور من وجوهٍ عدة(١):

١- تشابه الموضوع: فكلتا السورتين مكية، تضمنت الكلام عن التوحيد والبعث وأحوال الآخرة، والرسالة النبوية، وتفنيد معتقدات المشركين الفاسدة ودحضها.

٢- تناول كل من السورتين الحديث عن المتقين في المطلع، ففي مطلع كل منهما وصف حال المتقين في الآخرة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٩]، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: ١٧]، والحديث عن الكافرين في الختام، ففي ختام كل منهما صفة حال الكفار: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا..﴾ [الذاريات:٦٠]، ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

٣- في اتحاد القسم بآية كونية في مستهل كل منهما: ففي سورة الذاريات أقسم الله بالرياح الذاريات النافعة، وفي سورة الطور أقسم الله بالجبل الذي حظي بالنور الإلهي بتكليم موسى، وإنزال التوراة عليه لنفع الناس في المعاش والمعاد.

٤- تطابق الأمر للنبي: بالإعراض عن الكافرين ومتابعة تذكير المؤمنين، ففي الذاريات: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [الذاريات:٥٤]، ﴿وَذَكِّرْ﴾ [الذاريات:٥٥]، وفي الطور: ﴿فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ﴾ [الطور:٢٩]، ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَقُوا يَوْمَهُمُ﴾ [الطور:٤٥].

٥- أن سورة الذاريات فيها ذكر لعذاب الأمم السابقة، وسورة الطور فيها تحذير لكفار قريش من أن يصيبها ما أصاب الأمم السابقة إن هم استمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم.

٦- تناسب ختام سورة الذاريات مع مطلع سورة الطور؛ فقد ختمت الذاريات بتحقيق الوعيد، وافتتحت الطور بإثبات العذاب الذي هو روح الوعيد، ولشدة افترائهم

---

(١) ينظر التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، ٢٧/ ٥٢ بتصرف، دار الفكر (دمشق – سورية)، دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩١ م.

على الرسول -ﷺ-، وقولهم عما أتاهم به : إنه سحر وخيال لا حقيقة ناسب ذلك القسم بالجبل الذي هو أثبت الأرض وأشدها صلابة(١)

أغراض السورتين:

سورة الذاريات بدأت بالحديث عن قدرة الله -سبحانه وتعالى- في الكون، وعن الإيمان وأسس العقيدة، والبعث والجزاء، فتعدد فيها الحوار وتنوعت مستوياته، في خطاب موجه للناس كافة من مؤمنين ومشركين، مبينًا جزاء المؤمنين وما أعد لهم من نعيم في الآخرة، وأحوال المشركين المنكرين لرسالة النبي -ﷺ- في الدنيا، ومآلهم في الآخرة، وأقامت الحجج التي تدفع إنكار المشركين ومزاعمهم بإهلاك كثير من القرون الأولى.

أما سورة الطور فقد بدأت بالحديث عن أهوال الآخرة وشدائدها، وعما يلقاه الكافرون في ذلك الموقف الرهيب، وأقسمت على أن العذاب نازل بالكفار لا محالة، لا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع، وبينت حال المتقين في جنات النعيم، على سرر متقابلين، وقد جمع الله لهم أنواع السعادة: الحور العين، واجتماع الشمل بالذرية والبنين، والتنعم والتلذذ بأنواع المآكل والمشارب، من فواكه وثمار، ولحوم متنوعة مما يشتهى ويستطاب، إلى غير ما هنالك من أنواع النعيم، مما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأمرت الرسول -ﷺ- بمتابعة التذكير وتبليغ الرسالة وإنذار الكفرة، وأثبتت بالأدلة صدق رسالته -ﷺ-، كما أقامت البراهين القاطعة على الألوهية الحقة، وختمت بأمر النبي -ﷺ- بتركهم، وألا يحزن لذلك، فإن الوعيد حالٌّ بهم في الدنيا والآخرة، وأمرت رسول الله -ﷺ- بالصبر، ووعدته بالتأييد والنصر، وأمرته بشكر ربه في جميع الأوقات(٢).

(١) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، ١٩/ ٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

(٢) معالم السور، فايز السريح، صـ٢٨٢، دار الحضارة – الرياض، الطبعة الثانية ٢٠٢١م.

المطلب الأول

بناء المعنى في آيات جزاء المتقين في سورة الذاريات

سورة «الذاريات»:

يدور موضوع السورة حول بيان قدرة الله على البعث، من خلال بيان بعض مظاهر تلك القدرة، وخاصةً فيما يتعلق برزق العباد، لذلك جُعلت الرياح «الذاريات» اسمًا للسورة؛ لكونها من أهم أسباب الرزق، فهي تذرو السحب المحملة بالغيث، كما تذرو حبوب اللقاح(١)، وكما هيأ الله -ﷻ- رزق العباد من السماء والأرض، فهو قادر على بعثهم ومجازاتهم، وجاء لذلك وصف الذاريات باسم الفاعل؛ للدليل على كمال طاعتها لأمره -سبحانه وتعالى-، وكذلك فإن السورة الكريمة بما اشتملت عليه من ثواب وعقاب، وبما حوته آياتها من جزاء وحساب تُثير القضية في موضوع البعث؛ وكأنها تقول للإنسان الشاك فيه: إن موضوع البعث موضوع خطير وكبير، وأن المسألة يترتب عليها -حسب التصور الديني والإيماني- بعث وحساب وجزاء، وجنة أبداً، أو نار أبداً، وعلى هذا فمحور السورة الكريمة تعليق القلب البشري بالغيب المكنون، وربطه به؛ لتحقيق تمام إذعانه وخضوعه له.

وجاء الحديث عن المتقين وجزائهم وصفاتهم في سورة الذاريات في قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ **[الذاريات ١٥: ١٩].**

ولا شك في أن الآيات الكريمة -موضع البحث- تدور حول نفس المحور وتتمم مقصده والغاية منه، وقد بني المعنى فيها على نحو يؤكد قضية البعث والحساب؛ لأن المؤمن إذا علِم بالجزاء الذي أعدَّه الله للمتقين، وتيقن أنه مجزي به لا محالة، حَمَله

---

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ٢٧/ ٥.

ذلك على المسارعة إلى الخيرات، والتحلي بما تمسك به المتقون من صفات، فكان ذكر الجزاء سبيلًا إلى الترغيب في فعل الخيرات، وترك المنكرات، وغير ذلك مما تدور حوله التقوى من معانٍ وصفات.

ومن جانب آخر فإن وقع هذه الآيات على الكافر له دوره الفعَّال في التأثير على قلبه، والأخذ بمجامع عقله ولُبِّه؛ لأنه أكثر تعلُّقًا بالدنيا وملذاتها، فإذا عَلِم أن هذه الدنيا لا تساوي شيئًا بجوار نعيم الآخرة، دفعه ذلك إلى التخلي عن معتقده، والتحلي بما فيه نفعه ومصلحته ـ هذا إن كان ممن يسمع ويعقل ـ فإنه ولا بد أن يذعن ويستسلم لله، ويوقن بالبعث والحساب.

ولما كان الحديث في الآيات السابقة عن الذين جحدوا بآيات الله، وكذَّبوا بالبعث، وما ترتب عليه من الوعيد بالعذاب الشديد، ناسب ذلك أن تتحدث هذه الآيات عن المتقين، وما أعدَّه الله لهم من جزاء وثواب؛ لتكون هذه الآيات في معرض الترغيب والحث والتحريض؛ لأن النفس البشرية تميل بطبعها إلى من يقوم بترغيبها في الأمور، ولخطورة القضية التي تتعلق بها الآيات ـــ البعث والحساب ـــ آثر النظم القرآني جانب الترهيب أولًا؛ بذكر الوعيد المترتب على الكفر وعدم الإيمان، ثم الوعد بالنعيم المترتب على الإيمان والإذعان.

والآيات الكريمة -محل الدراسة- عرض لمشهد ترغيبي من مشاهد يوم القيامة يتعلق بعباد الله المتقين، الذين بلغوا مرتبة الإحسان بأعمالهم في رحلة امتحانهم، وهم يُنعَّمُون في جنات وعيون، فقال-سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾، وهذه الآيات تتحدث عن وصف المتقين والجزاء الذي أعده الله لهم، وتُبيِّن مصيرهم، وهو الظفر بجنات وعيون، وهذا مصير حق، أجمله -تبارك وتعالى- هنا، وفصله في مواضع أخرى، فاشتملت الآيات على ملفوظات وصفية تقريرية للمتقين، فذكر ما يأكلون وما يشربون، وكيف يعيشون؟ وكيف يتحدثون؟، إلى غير ذلك مما هو إغراء كبير للتشبه بهم، والتحلي بصفاتهم، تلك الصفات التي تضمنت وعدًا من

الله يقضي بفوزهم واستحقاقهم الجنة.

وقد بُني المعنى على الأسلوب الخبري في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ والغرض من الخبر هنا الترغيب في التحلي بالتقوى، والحث والتحريض على الدخول في زمرة عباد الله المتقين، بطريق التشويق إليها، وذكر الجزاء المترتب على التحلي بها؛ حيث وعد الله المتقين بجنات النعيم، وقد جاء الأسلوب الخبري مؤكدًا بـ (إن) واسمية الجملة على نحو يلائم مقام الوعد، وهو من المقامات التي تستدعي أسلوب التوكيد؛ لتزداد النفوس به يقينًا واطمئنانًا[(١)]، ثم عرف المسند إليه بلام الجنس؛ لتشمل المتصفين بكل مراتب التقوى، فهي مراتب أدناها اتقاء الشرك؛ زيادة في الوعد بالجنات لمن يسمع الآيات فيسارع إلى تقوى الله ولو بنقاء قلبه من الشرك، فضلًا عمن زاد عليه.

وأوثر الظرف في جملة المسند -سبحانه وتعالى-: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ دون الملكية والاختصاص؛ لبيان قوة تمكن المتقين في الجنات الذي يتضمن الملك والاختصاص، ولبيان أنهم لا ينفكون عنها، وهم في مجموعها لا في كل جنة وكل عين.

فإن قيل: لم جمع الجنات، وقد وحدها في مواضع حينًا، وثناها في مواضع حينًا آخر؟

قيل: إن توحيدها كما في قوله -تعالى-: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [محمد:١٥]، فلكونها رحمة، ولاتصال المنازل والأشجار والأنهار بها كجنة واحدة، وحيث أريد الدلالة على جنس الجنة ونوعها، وأما التثنية كقوله -تعالى-: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]؛ فلأن الخطاب في سورة الرحمن للثقلين، فكأنه قيل: جنة للخائف من الجن، وجنة للخائف من الإنس، وكذلك كانت التثنية مراعاة لرؤوس الآيات، وأما

---

(١) ينظر خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، أ. د/ محمد محمد أبو موسى، صـ١٣٣، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة.

الجمع في قوله -ﷻ-: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾؛ فلأنها مقارنة بالدنيا وبالإضافة إليها جنات لا يحصرها عدد، وقيل: الجمع فيه إشارة إلى أن الزيادة في الوعد موجودة[1]، ولأنه أريد بالجمع الدلالة على كثرة النعيم المعد فيها للمتقين[2]، وقيل: في إيثار لفظ الجنات جمعًا لمقابلة الجمع بالجمع، وكأن كل واحد من المتقين له جنة؛ ومما زاد المعنى تعظيمًا -إضافة للجمع- تنكير لفظها[3].

ثم يبين النظم الكريم حال هؤلاء المتقين في قوله -ﷻ-: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾، ولما كان التوكيد من خصائص الحال على وجه العموم[4]، كان مجيء الحال هنا مؤكدًا للجزاء المترتب على التقوى، والنعيم الذي وُعِد به المتقون، وذلك على نحو يؤكد الغرض من بناء المعنى على الأسلوب الخبري، والنهج الذي سلكه المعنى بغية الحث على التحلي بصفات المتقين، والترغيب فيها، وناسب هذا التقييد بالمفعول (ما) الذي جاء اسمًا موصولًا فدل على تعظيم الجزاء، وتفخيم شأن النعيم الذي أعدَّه الله للمتقين، والتعبير بالإتيان في صلة الموصول (آتاهم) أقوى من التعبير بـ (الإعطاء)؛ لأن الإعطاء له مطاوع فيقال: أعطاني فعطوت، ولا يقال:

(١) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، ٢٨/ ١٦٥، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

(٢) ينظر من بلاغة النظم القرآني دراسة بلاغية تحليلية لمسائل علم المعاني والبيان والبديع في آيات الذكر الحكيم، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود، صـ٢٩، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٤ه-٢٠١٣م.

(٣) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ)، ٢٦/ ٣٤٧، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ.

(٤) شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام، صـ٣١٦، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا، بدون تاريخ.

آتاني فأتيتُ، وإنما يقال: آتاني فأخذتُ، والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له[1]، فالمراد أنهم آخذين كل شيء بتمام علمه، وشامل قدرته، فهو لا يدع لهم لذة إلا وأتحفهم بها؛ فيقبلونها قبول رضا، فالأخذ مستعمل في صريحه وكنايته كناية رمزية عن كون ما يؤتيهم الله أكمل في جنسه فهي كناية تلويحية، وبذلك فقد اجتمع في لفظ (آخذين) كنايتان ومجاز؛ لأن ما يؤتيهم الله بعضه مما يتناول باليد والبعض لا، وفي إطلاق الأخذ على ذلك استعارة بتشبيه المعقول في صورة المحسوس[2]، والتعبير بقوله: (آخذين) دون (قابلين)؛ لإرادة الرضا مع القبول مع قصد الرغبة فيما أعطاهم الله، وليس في (قابلين) سوى مجرد القبول.

وفي التعبير بصيغة الماضي: (ما آتاهم) دون (يؤتيهم) بعد قوله: (آخذين)؛ ليتفق اللفظان ويتوافق المعنى، ولزيادة الدلالة على اختصاصهم بالكرامة جيء بلفظ (رب) مضافًا إلى ضمير المتقين؛ إيماء إلى أن سبب ما آتاهم هو إيمانهم بربوبيته المختصة بهم، وهي المطابقة لصفاته -سبحانه وتعالى- في نفس الأمر[3].

ولما كان الثواب الذي أعدَّه الله للمتقين عظيمًا بُنِيَ المعنى على الأسلوب الخبري المؤكد، الواقع موقع التعليل للكلام السابق فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾؛ فهو استئناف بياني؛ لأن الكلام السابق الذي تضمن عظم جزاء المتقين، وعدم الإحاطة بوصفه، أثار في النفس سؤالًا فحواه: لماذا هذا الثواب الجزيل والجزاء العظيم الذي أعدَّه الله للمتقين، فكانت هذه الجملة (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) جوابًا عن السؤال المفهوم من السياق، وكان ترك العطف بين هذه الجملة والجملة السابقة عليها لشبه

(١) البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ٤/ ٨٥، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

(٢) ينظر نظم الدرر للبقاعي، ١٨/ ٤٥٤، والتحرير والتنوير، ٢٦/ ٣٤٧.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨/ ١٦٦، التحرير والتنوير، ٢٦/ ٣٤٨.

كمال الاتصال.

وكثيراً ما يصف الله -ﷻ- أهل الجنة بالإحسان: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠]، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]، وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥] إلى غير ذلك، والرسول -ﷺ- فسَّر الإحسان في حديث جبريل فقال: {الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك}(١)، وحقيقة الإحسان في اللغة: هو جعل الشيء حسناً(٢)، فالإحسان فوق العدل؛ لأنه لما كان تحري العدل واجبًا، كان تحري الإحسان ندبًا وتطوعًا، فناسب ذلك استعمال لفظة (محسنين) دون غيرها؛ للإشارة إلى أنهم فعلوا ما كلفوا به وزيادة بالتطوع والنوافل، فجوزوا بالإحسان إحسانًا، فزيد في عطاياهم ونعيمهم في الجنة.

ونزع الجار في الآية الكريمة، ولم يقل: (من قبل ذلك)؛ لعدم إرادة التبعيض، لأن الإنسان إما أن يكون مطيعًا في مجموع عمره، أو بعضه، والطاعة تجُبُّ ما قبلها وتكون سببًا في تبديل السيئات حسنات، فكأن كلًا من القسمين مطيع في جميع زمانه(٣)، وفي مجيء الظرف قبل الإشارة في قوله: (قبل ذلك) فائدة تتحقق في أن يؤتى بالإشارة إلى ما ذُكر من الجنات والعيون، وما آتاهم ربهم، فيحصل بسبب تلك الإشارة الموضوعة

(١) الحديث في صحيح البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -ﷺ- عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم الحديث (٤٧٧٧)، ٦/ ١١٥، المطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، ١٣١١ هـ.

(٢) لسان العرب مادة (حسن).

(٣) نظم الدرر للبقاعي، ١٨/ ٤٥٥.

للبعيد تعظيم شأن المشار إليه الذي استحقوه بتقواهم وإحسانهم[1].

ثم فسر إحسانهم بقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ لما عندهم من الإجلال له والحب فيه، فكأنهم مطبوعون عليه، فهذا ما يتعلق بأمر عبادتهم وصلاتهم أنهم يقومون الليل كله إلا قليلاً، فحيث إنّ عيون الغافلين هاجعة آخر الليل، فلا صخب ولا ضجيج ولا شيء يشغل فكر الإنسان ويقلق باله، ينهضون ويقفون بين يدي الله ويعربون له عن حاجتهم وفاقتهم، ويصفّون أقدامهم، ويصلّون ويستغفرون من ذنوبهم خاصّة.

وقد بُني المعنى على ترك العطف بين جملة ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ وما قبلها؛ لكمال الاتصال؛ إما لكونها جملة تفسيرية أوضحت كيفية الإحسان المذكور قبلها، أو لكونها بدل بعض من كل؛ لأن هذه الخصال الثلاث هي بعض من الإحسان، بل هو كالمثال الأعظم له؛ للدلالة على شدة طاعتهم لله ابتغاء مرضاته ببذل أشد ما يبذل على النفس.

كما أسهم الفعل الماضي في بناء المعنى في لفظ (كانوا)؛ لإفادة تحقق الهجوع ووقوعه منهم، وأن قيامهم بهذه النافلة هي دأب الصالحين المحسنين؛ وذلك لما يفيده خبر فعل الكون من أنه سنة متقررة، فالمدوامة على قيامهم الليل قوت وزاد لهم، فلا يستطيعون تركه بحال[2].

وكثُرت القيود في الآية الكريمة؛ لتشهد بروعة النظم القرآني وسبك البناء، وأن كل حرف في مكانه يزيده إعجازًا وبيانًا، وكذا ترتيب ألفاظها فيه ما يثير في النفس العجب والتأمل، فلو بدأت الآية بقوله: (كانوا يهجعون) لكان المذكور أولًا: راحتهم، ومن ثم وصفها بالقلة، وربما يغفل السامع ما بعد الكلام، فيتوهم أن إحسانهم كان لهجوعهم

(١) ينظر التحرير والتنوير، ٢٦/ ٣٤٨.
(٢) ينظر التحرير والتنوير، ٢٦/ ٣٤٩.

وراحتهم، فقدم لفظ (قليلًا)؛ ليكون السابق إلى الفهم قلة الهجوع وهو المراد، لا بيان الهجوع بوصفه بقلة أو كثرة، ثم زاد على ذلك قيدًا، فأكد أن هجوعهم القليل كان (من الليل)؛ لأن النوم القليل بالنهار قد يوجد من كل أحد، أما الليل فلا يسهره في الطاعة إلا متعبد مقبل(١)، ولغاية التأكيد وقع الإسناد إليهم مرتين، وأكد المعنى بإثبات (ما) مبالغة في تقليل هجوعهم؛ لإفادة أنه أقل ما يهجعه الإنسان، وكأن في الآية الكريمة إطنابًا اقتضاه تصوير تلك الحالة(٢).

فإن قيل: لم كان المدح بقلة الهجوع بدلًا من مدحهم بكثرة السهر؟

أجاب عن ذلك الرازي في مفاتيح الغيب قائلًا: إنما كان المدح بقلة الهجوع أبلغ؛ إشارة إلى أن نومهم عبادة، لأن ذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى، وهي الاستغفار في وجوه الأسحار، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم(٣).

وهذا التقديم أفاد تسليط الضوء على المقدم، ومزيد اهتمام وعناية بشأنه؛ لما ترتب عليه من فضل عظيم، فهو وقت يتنزل فيه الله ــ عزَّ وجلَّ ــ إلى السماء الدنيا، يستجيب فيه دعاء الداعين، ورجاء الراجين، واستغفار المستغفرين، فكان التقديم سبيلًا إلى تقرير أهمية هذا الوقت، وترسيخ السبيل الذي اتخذه المتقون للتقرب إلى ربهم، فاعترافهم بذنوبهم، واستغفارهم ربهم في أفضل وقت، حيث خلوهم بالله في الأسحار، ومناجاتهم الواحد القهار، كل هذا يؤكد أن وصولهم إلى التقوى لم يكن بالأمر اليسير، بل تكبدوا في سبيل ذلك من المشاق والصعاب التي أدخلتهم في زمرة أهل التقوى.

كما كان لتقديم المسند إليه على الخبر المثبت دور في بناء المعنى في قوله-ﷻ-: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾؛ حيث أفاد تقوية الحكم وتقريره، لما فيه من تكرار

---

(١) ينظر مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨/ ١٦٧.

(٢) ينظر نظم الدرر للبقاعي، ١٨/ ٤٥٥.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨/ ١٦٨.

الإسناد[1]، وكذلك بناء الفعل على الضمير؛ إشعارًا بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار، كأنهم المختصون به؛ لاستدامتهم له وإطنابهم فيه، وانحصار المستغفرين فيهم، فلكمالهم في الاستغفار كأن غيرهم لا يستحق مثل هذا الوصف[2]، فهم يدركهم السحر آخر الليل وهم يستغفرون الله -ﷻ-، إما في صلاة، وهذا أفضل الاستغفار، وإما في غير صلاة، حتى لو أن الإنسان صحا في السحر وهو يتقلب على فراشه ويستغفر الله، لرجا أن يكون من أهل هذه الآية، وهذه العبادة، وهذه الصلاة، وهذا الذكر، ولا شك أن الاستغفار من أعظم أسباب توفيق الله للعبد، وإعانته على ما يقاسيه من أمور دينه ودنياه، فإنه لا قوام، ولا قوة، ولا حول للإنسان، إلا بالله -سبحانه وتعالى-.

وتم بناء المعنى في الآية الكريمة بصورة بديعة حيث قدم الأسحار؛ للاهتمام بذلك الوقت خاصة، فهو الوقت الذي يغلب فيه النوم على الإنسان، فتكون صلاتهم فيه واستغفارهم منه أعجب من صلاتهم في أجزاء الليل الأخرى، وجيء بلفظ (الأسحار) جمعًا؛ ليدل على تكرار ذلك منهم في كل سحر، وفي دخول (الباء) خاصة على (الأسحار) دون غيرها؛ إشارة لمعنى لم يتم بدونها، ألا وهو الإلصاق[3]، فالباء أفادت أن استغفارهم كان في أول جزء من الليل؛ لأنها تستدعي احتواش الزمان بالفعل، ولسبك البناء صيغ استغفارهم عن طريق إظهار المسند إليه (هم) مع وجود ضميره؛ لقصد إظهار الاعتناء بهم، وليقع الإخبار عن المسند إليه بالخبر الفعلي؛ فيتقوى الخبر، لندرة

---

(١) ينظر الإيضاح محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت: ٧٣٩هـ)، تحقيق/ محمد عبد المنعم خفاجي، ٢/ ٦٠، دار الجيل – بيروت، الطبعة الثالثة.

(٢) تفسير أبي السعود تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، ٨/ ١٣٨، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٣) ينظر الجني الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق/ فخر الدين قباوة- محمد نديم فاضل، صـ٣٦، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

فعلهم، فالاستغفار في السحر يشق على من يقوم الليل؛ لأن ذلك وقت إعيائه(١).

كما لاءم بناء المعنى عطف قوله: (وبالأسحار هم يستغفرون) على قوله: (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) للتوسط بين الكمالين، فقد اتفقت الجملتان في الخبرية لفظا ومعنى، ووجدت مناسبة بينهما، ولما كان الاستغفار أحد أنواع الطاعة التي يقوم بها المتهجدون فإن هذا العطف بين الجملتين يمكن عدّه من قبيل عطف الخاص على العام؛ تنويهًا بشأن الخاص، حتى كأنه ليس من جنس العام؛ تنزيلًا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات(٢).

فإن سأل سائل قائلًا: ما شأن هؤلاء المتقين وقد قاموا الليل إلا قليلًا يقومون بالاستغفار، فمم يستغفرون؟

قيل: إن استغفارهم قد يكون من ذلك القدر من النوم، فهذا شأن الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله، ويعتذر من التقصير، فهم يعدون أنفسهم مع هذا الاجتهاد مذنبين ويسألون غفران ذنوبهم؛ فإن استغفارهم ذلك على بصيرة؛ لوفور علمهم بالله، فقد نظروا في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات التي لا تحصى، فعلموا أنهم لا يقدرون على أن يقدروه حق قدره وإن اجتهدوا(٣).

ولما أوضح النظم القرآني الصفات التي أهَّلت المتقين لهذه المنزلة عند ذكر معاملتهم للخالق أتبعه بمعاملتهم للخلائق؛ تكميلًا لحقيقة الإحسان، فقال -ﷻ-: ﴿وَفِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ فهم ليسوا زاهدين في دنياهم، لا يعرفون الأمور، ولا يوردونها، ولا يصدرونها! بل هم -وإن كانوا من أهل الآخرة- إلا أنهم لم ينسوا نصيبهم من الدنيا، فلهم تجارات، ولهم أعمال، ولهم خيرات في هذه الدنيا، لكنهم لم يجعلوا

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٨/ ١٦٩، نظم الدرر، ١٨/ ٤٥٦، التحرير والتنوير، ٢٦/ ٣٥٠-٣٥١.

(٢) ينظر شروح التلخيص، الخطيب القزويني- بهاء الدين السبكي- ابن يعقوب المغربي، ٣/ ٢١٧، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

(٣) نظم الدرر للبقاعي، ١٨/ ٤٥٦.

هذه الأشياء هممهم، ولم تحل من قلوبهم محلاً، فلذلك ينفقونها في أوجه الخير، فلا يرون ما ينفقونه فضلاً منهم، بل حقـاً عليهم، فيخرجه الواحد منهم وهو يتخلص من شيء لو بقي لظن أنه يفسد ماله، لأنه حق للآخرين، وهذا التعبير يدلّ بوضوح أنّهم يعدّون أنفسهم مدينين للمحتاجين والمحرومين، ويعدّون السائل أو المحروم ذا حقّ عليهم، حقّ ينبغي دفعه إليه دون منّ ولا أذى، فكأنّه دين من سائر الديون، ولا شك في أن هذا التعبير كما تدلّ عليه القرائن المتعدّدة لا علاقة له بالزكاة الواجبة وأمثالها(١)، بل هو ناظر إلى النفقة المستحبّة التي يعدّها المتّقون دَينًا عليهم.

وقد أسهم في بناء المعنى في هذه الآية التقديم للمسند -الجار والمجرور- (وفي أموالهم) على المسند إليه (حق)؛ اهتمامًا بالمقدَّم، وتقوية للحكم وترسيخه؛ إذ هو أحب زينة الدنيا إلى النفس، وبه معاشها، وعليه يتنافس الناس، ويكدحون أعمارهم في اكتسابه؛ لذا فالنفس أبخل ما تكون به، وأول شيء تَضِن به، ولأن غاية أهل التقوى رضا خالقهم، وبذل النفس والنفيس لأجله كان من السهل عليهم أن تجود به أنفسهم ابتغاء وجه ربهم، وهم مع ذلك لا يرون هذا منهم تفضلًا أو تكرمًا، وإنما يرونه حقًا عليهم تجاه خالقهم وما أنعم به عليهم؛ لذا أسهمت النكرة في بناء المعنى في المسند إليه (حق) فأفادت تعظيم هذا الحق في نفوسهم، وتفخيم شأنه أداءً لشكر المنعِم -سبحانه وتعالى-، كما أيد ذلك إيثار اللام في قوله: (للسائل والمحروم) وكأنه تثبت من كل وجه أن هذا المال الذي يعطيه المتقون صدقة أو زكاة إنما هو مِلك للسائل والمحروم، وهم مجرد أسباب ساق الله الخير على أيديهم فقط، فليس لهم أدنى فضل عليهم.

وقد أضيف المال إليهم بخلاف المواضع الأخرى في النظم القرآني كقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة:٢٥٤]، وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة:٣]؛ لأن مثل تلك

---

(١) الأولى أن المراد هنا الصدقة؛ لأن السورة مكية، والزكاة لم تفرض إلا بالمدينة، ينظر فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، ٥/ ١٠١، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ١٤١٤هـ.

المواضع إنما كانت للحث على الإنفاق، فهو مال الله يرزقكم فلا تخافوا الفقر وأعطوا، بينما أريد في هذا الموضع مدحهم على صنيعهم، فلم يكن إلى الحث حاجة ولا داع، فناسب إضافة المال إلى ضميرهم، ومما زاد المدح بهاء وقوة تضمنه معنى الظرف؛ لدخول (في) الظرفية، وكأنهم جعلوا مالهم ظرفًا للحقوق.

ولما كان السياق للإحسان، فكان إحسانهم؛ -لابتغاء وجه الله وفرط محبتهم لعباده- لا يوقفهم عند الواجب بل يعطون عطاء من لا يهاب الفقر، وقدم السائل؛ لاندفاع حاجته قبل حاجة المحروم، وفيه إشارة لكثرة العطاء وتحريه وتعهده والإصرار عليه؛ فهم يعطون جميع السائلين فمتى جبروا سؤالهم لم يكتفوا بذلك، بل بحثوا عن المحتاجين المتعففين يعطونهم ويضعوا صدقاتهم في موضع يحب الله وضعها فيه(١).

(١) ينظر مفاتيح الغيب، ٢٨/ ١٧١، والتحرير والتنوير، ٢٦/ ٣٥١.

المطلب الثاني
بناء المعنى في آيات جزاء المتقين في سورة الطور

سورة «الطور»:

يدور محور السورة الكريمة حول تقرير أصول الدين، والتفكر بمخلوقات الله العظيمة الدالة على وجوده وقدرته -سبحانه وتعالى- في الخلق، والحديث عن أهوال يوم القيامة، والاستعداد لهذا اليوم برفع الهمة، والدعوة إلى عبادة الله وحده، وإيقاع العذاب بالمكذبين في الآخرة، وبيان حالهم وحال غيرهم من المشركين في النار، وتسفيه عقول كفار قريش الذين وصفوا بأهل الأحلام والنهى.

وكما ذكر النظم القرآني ما للمكذبين من العذاب المعد لهم، والمشار إليه بكلمات القسم، أتبعه بما لأضدادهم من الثواب المنبه عليه -أيضًا- بتلك الكلمات؛ ليتم الخبر ترغيبًا وترهيبًا، فذكر حال المؤمنين المتقين وجزاءهم العظيم في الآخرة بعد بيان حال الكفار، ثم ذكر الثواب عقب العقاب؛ جريًا على الموازنة وعادة القرآن في إيراد الأضداد، والجمع بين الترغيب والترهيب؛ حتى يتأمل الإنسان في المصير، فيرغب في الرحمة، ويرهب من الانتقام والعقاب.

وكذلك فإن الآيات الكريمة -محل الدراسة- تدور حول المحور ذاته، وتؤكده وتخدم مقصده وتتمم غايته، فتقدم صورة كلية ممتدة لما أعده الله من ثواب للمتقين في جنات الخلد، وقد بُنى المعنى فيها بما يقابل سابقتها من أساليب الترغيب بذكر المواهب الكثيرة التي وهبها الله -سبحانه وتعالى- عباده المتقين، والثواب العظيم المعد لهم؛ لتتجلّى بمقاييس واضحة مكانة كلّ من الفريقين يوم القيامة، فيقول -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ [الطور١٧: ٢٠][1]، سيقت هذه الآية على سبيل الاستئناف البياني فقد فُصلت عما

(١) (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) [الطور: ٢١]

قبلها؛ حيث أثار الكلام السابق في ذهن المخاطب تساؤلًا عن جزاء الفريق المؤمن بعدما تحدث عن جزاء الكفار، فكانت هذه الآية جوابًا عن هذا السؤال، وكأنه يسوق البشرى للمتقين، ويخبرهم بما أعد لهم في الآخرة جزاء لهم على الطاعة؛ ترغيبًا لهم في الثبات على تقواهم وطاعتهم لله، وتثبيتًا لهم على طريق الحق، ومن جهة أخرى فإن فيه عذابًا نفسيًا للكفار - فضلًا عن العذاب الجسدي- فإنهم متى علموا بما أعده الله للمؤمنين من ثواب ازدادت حسرتهم على أنفسهم، وازداد غيظهم من المتقين، وتيقنوا عظيم الجرم الذي أسقطهم من نظر ربهم واستحقوا به العذاب الأليم.

وكان السبيل إلى التعبير عن هذا بناء المعنى على الأسلوب الخبري؛ حيث استطاع أن يصور المشهد بطريقة بديعة، فاستهل النص القرآني بـ (إن) المؤكدة بلزوم تحقيق الحدث الذي دخلت عليه، لا سيما أن تلك الآية الكريمة مبنية على الأسلوب الخبري الاسمي، فضلًا عن اقتران هذا الأسلوب الخبري بالأسلوب الاشتقاقي الموحي -هو الآخر- بتحقيق فعل بشرى المتقين، المتجسد في مفردات أسماء الفاعلين (المتقين-

---

«في الواو ثلاثة أقوال نسردها فيما يلي ثم نبيّن مواضع الرجحان: ١- استئنافية والذين مبتدأ والخبر جملة ألحقنا بهم ذريتهم وعليه أكثر المفسرين والمعربين. ٢- قال أبو البقاء: منصوب بفعل محذوف على تقدير وأكرمنا الذين آمنوا. ٣- قال الزمخشري: والذين آمنوا معطوف على حور عين أي قرناهم بالحور وبالذين آمنوا أي بالرفقاء والجلساء منهم كقوله تعالى إخوانا على سرر متقابلين فيتمتعون تارة بملاعبة الحور وتارة بمؤانسة الإخوان المؤمنين. وقد ردّ أبو حيان على الزمخشري فقال: «ولا يتخيل أحد أن قوله والذين آمنوا معطوف على بحور عين غير هذا الرجل وهو تخيل أعجمي مخالف لفهم العربي» ونحن لا نتردد في مشايعة أبي حيان في ردّه. وجملة آمنوا صلة الذين واتبعتهم ذريتهم عطف على آمنوا وبإيمان حال من ذريتهم أي حال كون الذرية ملتبسة بإيمان وجملة ألحقنا بهم ذريتهم خبر»، إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين بن أحمد مصطفى الدرويش (ت: ١٤٠٣)، ٩/ ٣٣٣، دار اليمامة، دمشق، بيروت، ط٤، ١٤١٥هـ؛ ولما كانت الواو استئنافية على أرجح الأقوال كان لزامًا ألا تدخل الآية الكريمة في جملة الحديث عن المتقين.

فاكهين- متكئين)؛ لتمتع اسم الفاعل بالدلالة على الحدث الغابر المعلوم(١)، وكذلك للاهتمام بذكر النعيم الذي ينتظرهم، والترغيب في التحلي بصفاتهم، فلاءم ذلك مقام الوعد.

كما أوثر وصفهم بـ (المتّقين) بدلًا من (المؤمنين)؛ لأنّ هذا العنوان يحمل مفهوم الإيمان، كما يحمل مفهوم العمل الصالح أيضـًا، خاصّة أنّ (التقوى) تقع مقدّمةً وأساسـًا للإيمان في بعض المراحل، والتعبير بشبه الجملة (في جنّات ونعيم) في صورة الجمع والتنكير لكلٍّ منهما، إشارة إلى تنوّع الجنّات والنعيم وعظمتهما، فلم يعلم كنههما أحدٌ من قبل قط، كما أن لفظ (النعيم) يوحي بأن المتلقي إزاء نعيم فريد يكمن تفرده في أنه عطاء من عند الله.

ثم انتقل النظم القرآني لبيان حال هؤلاء المتقين بما يمنحنا لونًا آخر من جمالية الخطاب القرآني المتجسد في الحديث عن المتقين بصيغة الغائب (فاكهين- آتاهم- ووقاهم)، فقال: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾، ولأن التوكيد من خصائص الحال آثر النظم القرآني التعبير بـ (فاكهين(٢)) خاصة؛ تأكيدًا للجزاء المترتب على التقوى، وترغيبًا فيه، وللدلالة على الزيادة في النعيم؛ فالمتنعم قد يظهر عليه آثار النعيم وقلبه مشغول، فلما عبر بالفكه دل على غاية طيب نفوسهم بما أتوا، وزاد تقييد المعني بقوله: (بما آتاهم ربهم) مزيدًا من مظاهر النعيم؛ فالفكه قد يكون خسيس النفس فيسره أدنى شيء، ويفرح بأقل سبب، فلما قيد المأتي بالمفعول (ما) الذي جاء اسمًا موصولًا، ووصفه بأنه من عند ربهم زاد المعنى تعظيمًا وتفخيمًا للعطاء الذي حباهم الله إياه، فليسوا فاكهين بأقل شيء

---

(١) ينظر معاني الأبنية، لفاضل صالح السامرائي، صـ١٧٥ وما بعدها، نشر جامعة بغداد، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

(٢) كلمة «فاكهين» مشتقّة من فكه على وزن نظر، وفكاهة على وزن شباهة، ومعناها كون الإنسان مسروراً، وجعل الآخرين مسرورين بالكلام العذب، ويقول الراغب في مفرداته: الفاكهة معناها كلّ نوع من الثمار، والفكاهة أحاديث أهل الأُنس، لسان العرب مادة (فكه).

لدنو همة، بل فاكهين لعلو نعمهم حيث هي من عند ربهم(١)، وجاء التقييد بالباء التي تحمل معنى السببية؛ لتدل على أن الله آتاهم ما يحبون، ونعمهم حتى رضوا واطمأنوا وطابت نفوسهم، وكذلك للإشارة إلى عظيم ما آتاهم؛ فالعطاء يناسب حال المعطي(٢)، بالإضافة إلى معنى الإلصاق(٣) الذي يشعر بملازمة السرور لهم، وعدم انفكاكه عنهم.

ولبيان تأثير هذه النِعَم الكبرى على أهل الجنّة، خاصّةً أنّ الله قد طمأنهم وآمنهم من العقاب، بُني المعنى في الآية الكريمة على الأسلوب الخبري مفتتحًا بعطف جملة (ووقاهم) التي جاءت في موضع الحال فقال: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ وكأن جملة الحال جاءت لتعداد النعم التي أنعم الله بها على المتقين، فكأن قوله: (فاكهين بما آتاهم) نعمة، وقوله: (ووقاهم عذاب الجحيم) نعمة أخري، وفيه إظهار للتباين بين حال المتقين وحال المكذبين؛ زيادةً في الامتنان، فإن النعمة تزداد عند رؤية ضدها، وبالإضافة لكونه دليل على نفي كون تلك النعم بعد عذاب.

وهذه الجملة على اختلاف المعاني التي احتملتها -حيث أريد بها إما: بيان النعمة المستقلّة قبال نعم الله الأُخر، وإما: أن تكون تعقيبًا على الكلام السابق، أي أنّ أهل الجنّة مسرورون من شيئين: بما آتاهم الله من النعم في الجنّة، وبما وقاهم من عذاب الجحيم- ويؤيد هذا المعنى إظهار المسند إليه في مقام الإضمار (ربهم)؛ لقصد استقلال الجملة بمدلولها؛ حتى لا تحتاج إلى كلام آخر ذكر فيه الضمير، كما أن الإظهار أفاد تقرير المعنى وتثبيته وترسيخه(٤)، وإيثار التعبير بلفظ الرب لما يشعر به لفظ الرب من الرعاية

(١) مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨/ ٢٠٦.

(٢) ينظر التحرير والتنوير، ٢٧/ ٤٦.

(٣) ينظر الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (ت: ١٨٠هـ)، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، ٤/ ٢١٧، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، والجنى الداني، صـ٣٦.

(٤) ينظر علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود، صـ٢٥٠، الطبعة الرابعة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م، خصائص

والعناية والتربية والحفظ، فهذا هو الرب الذي آثروه في الدنيا فأحاطتهم عنايته ورعايته، وإضافة الرب إلى الضمير العائد على المتقين (ربهم) يشعر بالتشريف والتكريم لهم، كما أضفت الإضافة في (عذاب الجحيم) على المعنى مزيد تهويل وتفخيم للعذاب الذي نجاهم الله منه[1].

ثمّ بني المعنى على الأسلوب الطلبي في قوله -ﷻ-: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لاقترانه بالمتاع الحسي الهانئ، فضلًا عن إيماء الأمر الإلهي -هنا- بالإخبار عن فعل الخير، وكأن تلذذ المتقين بالجزاء الإلهي أمر مفروغ منه، وذلك الأمر أدعى لاستقرار نفوسهم بفعل تلك البشرى التي أمرهم الله بها، والآية الكريمة فيها التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ استدرارًا لأسماع هؤلاء المتقين، وتجديدًا لنشاطهم، وصيانة لخاطرهم من الملال والضجر، كما أن فيه مبالغة في وصف النعيم الذي يتلذذ به المتقون، فإن الطعام والشراب أساس الملذات، وكذلك فقد أشعر الخطاب بمعاينة النعيم الذي يحياه المتقون كأنه رأي العين، والتقييد بـ(هنيئا) يفيد الزيادة في النعيم فهم هانؤون مطمئنون، وكان هذا الجزاء بسبب ما قاموا به في الدنيا، وهذا ما أشعرت به الباء في قوله: (بما كنتم تعملون)؛ حيث أسهم في بناء المعنى مجيء الجار والمجرور، وإيثار الباء التي أفادت السببية خاصة؛ مما أشعر بمزيد تكريم لهم، وذلك بإظهار ما أتوه من النعيم عوضًا عن أعمالهم الصالحة في الدنيا[2].

وجاء الفصل بين جملة (كلوا واشربوا) وما سبقها؛ لكمال الاتصال بلا إيهام لاختلاف الجملتين في الخبرية والإنشائية، ونزلت الجملة الثانية من الأولى منزلة بدل البعض من الكل؛ لأن الأكل والشرب بعض من النعيم الذي يحياه المتقون في الجنة.

وما زال السياق القرآني يتحدث عن شمول فضل الله ونعمه للمتقين، فيقول:

التراكيب محمد أبو موسى، صـ٢٨٣.

(١) ينظر مفاتيح الغيب للرازي، ٢٨/ ٢٠٦، والتحرير والتنوير، ٢٧/ ٤٦.

(٢) ينظر السابق نفسه ٢٨/ ٢٠٦.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصۡفُوفَةٍۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾، حيث بُنى المعنى على أسلوب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة؛ بقصد المبالغة في وصف نعيم المتقين؛ كأنه يصف حالهم لغيرهم؛ ترغيبًا في الاقتداء بهم، وحثًا على السير على نهجهم، وإغراء لغيرهم حتى يتشبهوا بهم؛ إشارة إلى أن صنيعهم يستحق الثناء والمدح عند ربهم، وذلك للترغيب في الجنة بما فيها من وصف جميل، يبعث الأمل في نفوس المؤمنين للتمسك بفضائل الأعمال وفعل الخيرات، وتعويد النفس على الصبر وحبسها عن الشهوات؛ حتى تحظى برضوان الله في الدنيا والآخرة.

ولذلك كان لبناء المعنى على صيغة الحال (متكئين) مزية لا تتم بدونها؛ لأنها توحي -باسميتها واشتقاقها- بالاسترخاء والدعة، وتهتف بمتاع متحقق، كما أن إيثار التعبير بها فيه إشارة إلى منتهى الهدوء وطيب النفس؛ لأنّ الإنسان عند الهدوء يتكىء عادةً، والذين هم في قلق وحزن لا يكونون كذلك.

وتقييد الاتكاء بحرف الجر (على) يفيد استعلاء أهل الجنة على السرر، وهذا يشعر بتمكنهم وعلو مكانتهم، ووصف السرر بكونها (مصفوفة)؛ لتكتمل صورة النعيم ونظامه البديع في الجنان، حيث وضع كل جزء في الصورة؛ ليكمل ذلك المشهد العظيم الذي يأسر قلوب المتقين حين يتخيلون ذلك النعيم وكأنه شاخص أمامهم في نظام محكم لم يرون له مثيلًا قط.

ومن بديع استعمال حرف الجر -الباء- في قوله: (بحور عين) صرفٌ للفعل (زوجناهم) عن ظاهره من التعدية لمفعولين؛ ليفيد أنه ليس المراد منه النكاح الدنيوي؛ لأنه لو كان كذلك لتعدى الفعل بنفسه، ولكن المراد تزويجًا بما يليق بالنعيم المعد لهم في الآخرة من العظمة، وفيه دلالة على أن المنفعة في التزويج لهم، فقد زوجوا للذتهم بالحور العين لا العكس(١).

---

(١) ينظر نظم الدرر للبقاعي، ١٩/ ١٣.

ولا شك أن بناء المعنى في الآيات الكريمة أسبغ على مظاهرها تقريرًا وتأكيدًا، يستمد من الأفعال الماضية (أتاهم- وقاهم- كنتم- زوجناهم) بدلالتها على التحقيق والثبوت، كما أسبغ عليها دوامًا وتجددًا استمد من إيثار الاشتقاق الدال على الحال (فاكهين، متكئين) بما تفيده من التجدد والاستمرار من وجه، وإكساب الصورة قدرًا من الحيوية بما يجعل مظاهر النعيم حية شاخصة متحركة في مخيلة المتلقي من وجه آخر.

وكذلك فإن الخطاب الخبري الاسمي للآيات يوحي بثبوت ولزوم الجزاء للمتقين، وكأن قلقًا قد اعتور نفوسهم وقلوبهم عن قرب أو بعد الجزاء الموعود، فجاء الخطاب اسميًا لهم؛ ليطمئنهم بثبوت ذلك الجزاء المبشر، كما أوحى الخطاب الخبري بقطعية تحقق أحداثه، فضلًا عن لغته الإسنادية المتسمة بالترغيب وإدخال السرور على قلوب المتقين المتأتي من البشرى العظيمة بجنات النعيم وما فيها.

المطلب الثالث

أوجه التشابه والاختلاف لبناء المعنى في آيات جزاء المتقين بين الذاريات والطور

تباينت طريقة الحديث عن المتقين في السورتين، واختلفت طرق بناء المعنى في كل منهما؛ ففي سورة الذاريات أجمل الحديث عن جزاء المتقين، بينما توجه الحديث عن الصفات التي بسببها حازوا هذه المنزلة، وظفروا بذلك الجزاء، أما سورة الطور فكانت جل الآيات عن وصف جزاء المتقين، وما أعده الله لهم في الجنات؛ لذا فقد بُنيَ المعنى في السورتين على هذا الأساس، وتناسب بناء المعنى في كل منهما حسب هذا التباين والاختلاف، مما يوضح لنا التناسب بين مقاصد السورة وأغراضها وبين بناء المعنى، ويؤكد أن بناء المعنى هو السبيل إلى ترسيخ مقاصد السورة وأغراضها مما يثبت قضية إعجاز النظم في السورتين، حيث جاءت الآيات متنوعة في الأسلوب، متناظرة في السياق، متقابلة في الألفاظ، متباينة في الشكل بما يخدم هدف السورتين ويتناغم مع سياق كل منهما.

ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن سورة الذاريات من مطلعها تحدثت عن قضية البعث، وما ناسبها من حث على أفعال أهل الجنة، وكذلك حصر أعمال المكلفين وكتابتها عليهم، مع علمه -سبحانه وتعالى- بما توسوس لهم نفوسهم، ووقوع الجزاء وفقًا لذلك، حيث أعقب غفلة المكذبين -حتى يكشف لهم الغطاء فيشاهدوا ما لم يكونوا يحتسبون- بإزلاف الجنة للمتقين ووصفهم بما منحهم ووعدهم إياه، فكان الحديث عن صفات المتقين وأعمالهم هو المناسب للسياق من وصف نعيم الجنة الحاصل في سورة الطور، وذكر تفاصيل النعيم الذي لا يشبه شيئًا على وجه الأرض، ورحمة الله الذي لم يبخسهم أعمالهم.

وقد تجسد خطاب المتقين في السورتين الكريمتين في لوحتين إخباريتين مقدّستين اللوحة الأولى في سورة الذاريات: خطابها اسميًا موجبًا ركزت على أعمالهم وصفاتهم التي كانت سببًا في فوزهم بنعيم الآخرة، والثانية في سورة الطور: فكان الخطاب بتفصيل مشاهد النعيم التي أقرت بثبوت الوعد الإلهي لهم بحسن الثواب وقربه.

ولما أخبر الله عن المتقين في سورة الذاريات أنهم صاروا إلى الجنة بأعمال عددها، ودعا العباد إليها ضمنًا ليقتدوا بهم، ناسب ذلك أن يقرن الجنات بالعيون في قوله: (إن المتقين في جنات وعيون)، أما في سورة الطور: فقد فصَّل النعيم، فذَكَر السُّرُر، والفاكهة واللحم، وغير ذلك، فناسب أن يقول في الموجز مقدمة لهذا التفصيل مُجمِلاً إياه: (إن المتقين في جنات ونعيم).

وهنا يتبين جمال التعبير في سورة الذاريات بأن المتقين كانوا محسنين في الدنيا فوعدوا بالجنات؛ لأن السورة مليئة بالوعد، في حين أن سورة الطور تركز على العذاب فجاء التعبير بالوقاية من عذاب الجحيم هو الأنسب للسياق ولموضوع السورة الكريمة، فمجرد الوقاية من عذاب الجحيم -الذي عرضت مشاهده في مطلع سورة الطور- فضل من الله ونعيم لهم؛ فناسبه لفظ النعيم المقرون بالجنات؛ لذلك فصل النعيم، وعدد مظاهره، وصوره كأنه مشاهد لهم يتلهفون إلى الفوز والظفر به في جنات النعيم.

ولكون التوكيد من خصائص الحال آثر النظم القرآني في السورتين التعبير بصيغة الحال في قوله (آخذين- فاكهين)؛ تأكيدًا للجزاء المترتب على التقوى، وترغيبًا فيه، وللدلالة على الزيادة في النعيم على نحو يؤكد الغرض من بناء المعنى على الأسلوب الخبري، والنهج الذي سلكه المعنى بغية الحث على التحلي بصفات المتقين، والترغيب فيها، وزاد تقييد المعني بقوله: (ما آتاهم ربهم) في سورة الذاريات، وقوله: (بما آتاهم ربهم) في سورة الطور، حيث التقييد بالمفعول (ما) الذي جاء اسمًا موصولًا، فدل على تعظيم الجزاء، وتفخيم شأن النعيم الذي أعدَّه الله للمتقين، ووصفه بأنه من عند ربهم، فزاد المعنى تعظيمًا وتفخيمًا للعطاء الذي حباهم الله إياه، والتعبير بالإتيان في صلة الموصول (آتاهم) أقوى من التعبير بـ (الإعطاء)؛ لأن الإعطاء له مطاوع، والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له[1].

(١) البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ٤/ ٨٥، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي

بُني المعنى في آيات وصف المتقين في سورة الذاريات على الأسلوب الخبري على نحو يؤكد الغرض والنهج الذي سلكه المعنى بغية الحث على التحلي بصفات المتقين، والترغيب فيها؛ فكان الحديث عن صفات المتقين هو الأنسب للمقام من وصف النعيم الذي ظفروا به، بل ترك الحديث عنه ؛ ليذهب العقل في تخيله كل مذهب، بينما في سورة الطور تنوع بناء المعنى على الأسلوب الخبري حينًا؛ وكأنه يسوق البشرى للمتقين، ويخبرهم بما أعد لهم في الآخرة جزاء لهم على الطاعة؛ ترغيبًا لهم في الثبات على تقواهم وطاعتهم لله، وتثبيتًا لهم على طريق الحق، والأسلوب الطلبي حينًا آخر كما في قوله: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لما فيه من إيماء الأمر الإلهي بالإخبار عن فعل الخير، وكأن تلذذ المتقين بالجزاء الإلهي أمر مفروغ منه، وذلك الأمر أدعى لاستقرار نفوسهم بفعل تلك البشرى التي أمرهم الله بها، آخذا في وصف النعيم بكل صوره وألوانه؛ ترغيبًا في الاقتداء بالمتقين، وحثًا على السير على نهجهم، وإغراء لغيرهم حتى يتشبهوا بهم؛ إشارة إلى أن صنيعهم يستحق الثناء والمدح عند ربهم، وذلك للترغيب في الجنة بما فيها من وصف جميل، يبعث الأمل في نفوس المؤمنين للتمسك بفضائل الأعمال وفعل الخيرات؛ حتى تحظى برضوان الله في الدنيا والآخرة.

الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً كما يُحبُّ ربُّنا ويرضى، اللهم لك الحمد على ما أنعمت به عليَّ من حسن إتمام هذا البحث، وأسألك المزيد من فضلك، ودوام توفيقك يا أكرم مسئول، وخير مأمول.

وبعد، فهذا أوان وضع الرحال عند خاتمة البحث، في هذه المسيرة التي قضيتها مع دراسة بناء المعنى في وصف جزاء المتقين في سورتي الذاريات والطور، أقف حيث انتهت بي مطالب هذا البحث؛ لرصد وتسجيل عدة نتائج من خلال هذه الدراسة، وتحصيل عدة ثمرات أجملها على النحو الآتي:

أولًا: إن بناء المعنى هو السبيل إلى معرفة مقاصد الكلام وغاياته، التي تتنوّع بتنوّع المقامات، وبناء المعنى يكون عن طريق اختيار الألفاظ وتركيب الجمل وتنوع الأساليب حسب السياق -كما تجلى في كلتا السورتين-، مما يرسخ مبدأ الإعجاز القرآني، ويظهر روعة الأساليب وجودة السبك وبراعة البيان، وإعجاز التعبير بما يخدم هدف السورتين، ويتناغم مع مقام كل منهما، والغرض الذي سيقت من أجله في الكتاب العزيز.

ثانيًا: اختلفت مقاصد التعبير عن المعنى مما أدى إلى اختلاف طرق بناء المعنى، وهذا تابع لاختلاف المقصد من السورتين؛ فبينما كان المقصد من سورة الذاريات هو الحديث عن صفات المتقين التي بسببها حازوا هذه المنزلة، وظفروا بذلك الجزاء، كان المقصد من سورة الطور هو تفصيل الحديث في الآيات عن وصف جزاء المتقين، وما أعده الله لهم في جنات النعيم، وعلى إثر هذا الاختلاف كان التباين بين طرق بناء المعنى في كلتا السورتين.

ثالثًا: إن بناء المعنى على أسلوب الخطاب الخبري الاسمي للآيات يوحي بثبوت ولزوم الجزاء للمتقين، وكأن قلقًا قد اعتور نفوسهم وقلوبهم عن قرب أو بعد الجزاء الموعود، فجاء الخطاب اسميًا لهم؛ ليطمئنهم بثبوت ذلك الجزاء المبشر، كما أوحى

الخطاب الخبري بقطعية تحقق أحداثه، فضلًا عن لغته الإسنادية المتسمة بالترغيب وإدخال السرور على قلوب المتقين المتأتي من البشرى العظيمة بجنات النعيم وما فيها.

رابعًا: إن بناء المعنى في الآيات الكريمة أسبغ على مظاهرها تقريرًا وتأكيدًا، يستمد من الأفعال الماضية (أتاهم- وقاهم- كنتم- زوجناهم) بدلالتها على التحقيق والثبوت، كما أسبغ عليها دوامًا وتجددًا استمد من إيثار الاشتقاق الدال على الحال (آخذين، محسنين، فاكهين، متكئين) بما تفيده من التجدد والاستمرار من وجه، وإكساب الصورة قدرًا من الحيوية بما يجعل مظاهر النعيم حية شاخصة متحركة في مخيلة المتلقي من وجه آخر.

خامسًا: تعددت الطرق التي أسهمت في بناء المعنى، وكان لها دور بارز في ترسيخ مقاصده، وتمكين أغراضه، وتباينت هذه الطرق تبعًا لتباين مقاصد السورتين؛ ففي سورة الطور كان لأسلوب الالتفات وقعه في استدرار أسماع هؤلاء المتقين، وتجديد نشاطهم، وصيانة لخاطرهم من الملال والضجر، كما أن فيه مبالغة في وصف النعيم الذي يتلذذ به المتقون، حيث أشعر الخطاب عن طريق الالتفات من طريق الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بمعاينة النعيم الذي يحياه المتقون كأنه رأي العين، كما كان للالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ وقعه في المبالغة في وصف نعيم المتقين؛ كأنه يصف حالهم لغيرهم؛ ترغيبًا في الاقتداء بهم، وحثًا على السير على نهجهم، وإغراء لغيرهم حتى يتشبهوا بهم؛ إشارة إلى أن صنيعهم يستحق الثناء والمدح عند ربهم، وذلك للترغيب في الجنة، والفوز بالنعيم الذي أطنبت الآيات الكريمة في وصف دقائقه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت:٩١١ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢. الأساس في التفسير، سعيد حوّى (ت: ١٤٠٩هـ)، دار السلام – القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٢٤هـ.

٣. أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ– ١٩٩١م.

٤. إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين بن أحمد مصطفى الدرويش (ت: ١٤٠٣)، دار اليمامة، دمشق، بيروت، ط٤، ١٤١٥هـ.

٥. الإيضاح محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت: ٧٣٩هـ)، تحقيق/ محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة الثالثة.

٦. البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

٧. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر–تونس، ١٩٨٤هـ.

٨. تفسير أبي السعود تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، دار إحياء

التراث العربي – بيروت.

٩. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر (دمشق - سورية)، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١ م.

١٠. الجني الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق/ فخر الدين قباوة- محمد نديم فاضل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

١١. خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، أ. د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة.

١٢. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق/ محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة.

١٣. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا، بدون تاريخ.

١٤. شروح التلخيص، الخطيب القزويني- بهاء الدين السبكي- ابن يعقوب المغربي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

١٥. صحيح البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي، المطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، ١٣١١هـ.

١٦. علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود، الطبعة الرابعة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

١٧. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ١٤١٤ه.

١٨. الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، تحقيق/ محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة.

١٩. لسان العرب، لابن منظور، تحقيق/ عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، بدون تاريخ.

٢٠. مدخل لكتابي الإمام عبد القاهر للدكتور محمد أبو موسى، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٢١. معالم السور، فايز السريح، دار الحضارة – الرياض، الطبعة الثانية ٢٠٢١م.

٢٢. معاني الأبنية، لفاضل صالح السامرائي، نشر جامعة بغداد، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

٢٣. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٢٤. من بلاغة النظم القرآني دراسة بلاغية تحليلية لمسائل علم المعاني والبيان والبديع في آيات الذكر الحكيم، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٤ه-٢٠١٣م.

٢٥. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة.

٢٦. الموسوعة القرآنية، خصائص السور، جعفر شرف الدين، تحقيق/ عبد العزيز بن عثمان التويجزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت- لبنان.

٢٧. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.